

كتاب "حكمة القرآن" للإمام الفراهي

- أ.د. أبو سفيان الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. مجيب اختر²

إن شخصية الإمام عبد الحميد الفراهي³ (1863م-1930م) لا تحتاج إلى أي تعريف في مجال الدراسات القرآنية. فقد ألّف الإمام رحمه الله حوالي خمسين كتاباً في هذا المجال، كثير منها قد رأى النور بينما الأقلّ القليل منها بقي غير مطبوع.⁴ ومن بين هذه الكتب المؤلفة عن القرآن كتابه "حكمة القرآن" الذي نقله إلى اللغة الأردوية الكاتب الباكستاني الشهير خالد مسعود، وقام بطباعته إذ كان من المناسب أن يطبع النص العربي⁵ أولاً ثم يقوم بترجمته إلى لغة شاء، لأنه من الصعب لمحلّل ناقد أن يقدر قيمة الكتاب الحقيقية بالترجمة.

¹ بروفيسور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

² أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دلهي، الهند

³ يمكن الرجوع إلى الكتب الآتية لترجمة الفراهي وخدماته: أ- عبد الرحمن ناصر الإصلاحي (المرتّب)، مختصر حيات حميد (مقالتان عن ترجمة الإمام الفراهي)، مطبعة معارف، أعظم كره، بدون تاريخ، ص 1-64. ب- الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي، كليات فراهي، إدارة علوم القرآن، علي كره، 1991م، ص 7-78. ج- محمد عنایت الله السبحاني، علامه حميد الدين فراهي (العلامة حميد الدين الفراهي)، مكتبة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1978م ص 6-168. د- عبيد الله الفراهي، علامه حميد الدين فراهي - حيات وأفكار (مقالات التدوّة المنعقدة عن الفراهي في رحاب مدرسة الإصلاح)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1992م، ص 5-591

⁴ علامه حميد الدين فراهي - حيات وأفكار، ص 57-96

⁵ وصدر الأصل من الدائرة الحميدية ولكن هذه المقالة تقوم على الترجمة إلا أننا حاولنا أن نقوم بالمقارنة بينها وبين الأصل العربي. (مدير تحرير المجلة)

على كل حال، تبتدئ الترجمة بمقال للمترجم بعنوان "تصور الحكمة عند الإمام الفراهي"، ثم تأتي مقدمة المؤلف. والكتاب منقسم في جزأين: الجزء الأول فيه خمسة أبواب. تحدّث المؤلف في الباب الأول عن مفهوم الحكمة،¹ وقدم آراء جميع المفسرين قديماً وحديثاً في معنى الحكمة، فالمراد بالحكمة عند مالك وأبي زرير هو الفقه في الدين، والفهم الذي هو سجية ونور من الله -ﷻ-. والحكمة عند مجاهد (642-722هـ) هي فهم القرآن. كما أن المراد بالحكمة عند مقاتل (ت 668هـ) هي العلم والعمل به فلا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما، بينما المراد بها عند ابن زيد كل كلمة وعظمتك ودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة. ويقول أبو جعفر محمد بن يعقوب: كل صواب من القول ورث فعلاً صحيحاً فهو حكمة. ويقول يحيى بن معاذ: الحكمة جند من جنود الله الذي يرسله إلى قلوب العارفين حتى يروح عنها وهم الدنيا.

وقال الفراهي: إن هذه الأقوال كلها تلمع إلى حقيقة واحدة. بينما الحكمة أطلقها كتاب الله -جلّ وعلا- على جميع تلك الجوانب، ويمكن الوصول إلى معناها بالقرائن في كل مكان، والمعنى الحقيقي للحكمة هي البصيرة والتوفيق، بينما الأمور الأخرى من آثارها ومظاهرها.

ذكر الإمام الفراهي ميزات مختلفة للحكمة، والميزة الأولى أنّ الحكمة سواء كانت من الوعظ أو صائب القول لا بد أن تكون واضحة لا تحتاج إلى دليل، والميزة الثانية أنّ الحكمة إذا خالطت القلب رفعت، والميزة الثالثة أنّ الحكمة ليست هي جملة من العلوم المكتسبة، إنما هي نور إذا صادفت شيئاً نورته وبيّنت جانب

¹ ألف الشيخ محمد تقي الأميني كتاباً اسمه "حكمت قرآن" (حكمة القرآن) استفاد فيه من كتاب الفراهي "حكمة القرآن" ولم يتم طبعه حينذاك، فسافر للاستفادة من مسودته إلى أعظم جره، وتوجه إلى منزل الشيخ بدر الدين الإصلاحي حيث وضعت المخطوطات في صندوق مغلق.

الخبر والشر والحسن والقبح فهي حالة سجية. والميزة الرابعة أنّ الحكمة هي روح وقوة، فليست كالعلوم ما يخذلها العمل. فهي العلم والعمل معاً كالشمس وضوئها والنار وحرارتها. والميزة الخامسة أنّ الحكمة تجري في الأمور التي هي وسيلة السعادة وتزكية النفس. والميزة السادسة أنّ أصول الأعمال الصالحة كالسماحة والعدل والعفاف وأمثالها لكثرة جريان الحكمة فيها تحصل للحكيم في صورة القضايا الواضحة. فيحكم بالحكمة وهذه الأصول في جزئيات الأحكام عند المسألة والحاجة إلى القول فيها. وهذه الأصول تسمى حكمة. ولذلك سمي الإنجيل حكمة كما جاء في القرآن الكريم: "ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ".¹ والميزة السابعة والأخيرة أنّ الحكمة في القلب ليست أمراً طويلاً عريضاً، دقيقاً عميقاً، بل هي شيء يسير وصاحبها يتعجب ممن لم يرزقها. وأبين ذلك ببعض الأمثلة. أحدها يصلي ويجري على لسانه كلمات من الذكر ولا يجد في نفسه تخشعاً وتذكراً، فصاحب الحكمة يتعجب من ذلك...، وربما يكون هو خطيباً وواعظاً ومذكراً فيقول بلسانه ما لا أثر له في قلبه. فهذه البصيرة ليست بشيء بعيد يحتاج إلى تعمق وإعمال الأفكار والعلوم.

ثم مع ذلك هي مضمون بها إلا على خلص عباده الذين وصفهم الله في غير ما آية. ولذلك قال الله -ﷻ- في القرآن الكريم: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا".²

وكذلك يرى الإمام أنّ الحكمة لها أسماء ويقول: كما أنّ الحكمة أصل واحد ولها وجوه وفروع يطلق عليها اسم الحكمة، فكذلك للحكمة من قبل هذه الوجوه أسماء أخرى. فمن عرف الحكمة لم يلتبس عليه هذه الأسماء حيث أريد بها الحكمة. فمنها

¹ سورة الإسراء: 39

² سورة البقرة: 269

الإيمان، والعلم، والحق، والسكينة، والروح، والهدى، والبصيرة، والنور، والأمانة، واللب، والحظ العظيم، والخير الكثير.

الإيمان هو أصل الحكمة: كما أنّ الحكمة اسم جامع للعلم والعمل بحسبهما، فكذلك الإيمان اسم لجميع تلك. وإنما قلنا إنّ الحكمة أصلها وأساسها الإيمان بالربوبية، فإن المؤمن يخرج به من رق النفس إلى عبودية الرب تعالى، فتزول عنه ظلمتها، ويغشاها نور محبة الرب تعالى، فيطلب سبل مرضاته وتحصل له التقوى. وإذن يسلك شرائع الخيرات وينظر إلى المخلوق نظر الأخ إلى الأخ نظر الرحمة والرافة وهنا معنى الإسلام، فحبّ الرب تعالى يحصل له الطاعة والسلم ويزول الإفساد وقطع الرحم. قال الله -ﷻ: "اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ".¹ فالإيمان هو أصل الحكمة.

ثم قام الإمام الفراهي باستعراض معنى الحكمة عند الإمام الشافعي، والمراد بالحكمة عند الشافعي هي سنة الرسول -ﷺ- وبناء على هذا جعل علماء أهل الحديث يقولون إنّ الحكمة هي سنة الرسول -ﷺ- ويقولون إنّ الله -ﷻ- فرض على عباده وحيه وسنة رسوله -ﷺ- كما قال الله -ﷻ-: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" ².

وأنهم ذكروا آيات عديدة تتعلق بهذا المعنى لتقوية دعوهم. وقد أراد الإمام الشافعي بالحكمة السنة لأنه قد وجد الناس في عصره يفسرون القرآن الكريم في ضوء العلوم العقلية ويظنون أنها الحكمة، ولذلك قال الإمام الشافعي أنّ فهم القرآن في الحقيقة يحصل من سنة الرسول -ﷺ- وهذه السنن هي مأخذ من مأخذ

¹ سورة البقرة: 257

² سورة البقرة: 129

الكتاب الأصلية. والحقيقة أنّ تعليم الحكمة إحسان عظيم علينا،¹ ولذلك ذكر الفراهي رأي الإمام الشافعي في الحكمة مفصلاً.² وتكلم الإمام في الباب الثاني لهذا الكتاب عن أصل الحكمة وفروعها، وقال: إنّ الله -ﷻ- غني عن كل شيء وحميد من حيث جميع أعماله، ولذلك يجب على الخلق أن يحمده ويثني عليه ويشكره على نعمه لأنه أعطانا نعمه مما لا تعد ولا تحصى، فالشكر على النعمة يزيد النعم كما قال الله -ﷻ-: "لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ".³

وإن لم يستخدم العبد نعمه -ﷻ- بطريقة صحيحة وأصرّ على كفران نعمة الله تعالى وأنكرها دائماً فإنهم يعذبون عذاباً أليماً. قال الله تعالى: «وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ»⁴.

وذكر في هذا الباب أيضاً أن الحكمة من أعظم النعم، ولا تكون رغبة في الشكر وإرادته إلا بمعرفة قيمة النعم وقدرها، ولذلك ذكر القرآن الكريم الحكمة كنعمة عظيمة. كما قال الله -ﷻ-: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا".⁵ وقال أيضاً: في هذا السياق أنّ الحكمة تعطى أولئك الذين يشكرون نعمة الله -ﷻ-.

¹ انظر: لتفصيل: حكمة القرآن للفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، الطبعة الثانية، 2016م، ص 29-39.

² انظر: لتفصيل أفكار الشافعي المتعلقة بالحكمة: "فذكر الله الكتاب، وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله". وقال أيضاً: لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة، وذكر الله منه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز - والله أعلم - أن يقال الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس المظلي القرشي المكي، الرسالة، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، 1940م، ص 73.

³ سورة إبراهيم: 7

⁴ سورة إبراهيم: 7

⁵ سورة البقرة: 269

وَيَسْتَعْمَلُونَ نِعْمَ اللَّهُ -ﷻ- بطريقة صحيحة ويصبحون مستحقين لها. قال الله تعالى:
"وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى".¹

وأما الذين يتركون هذا السبيل فإنهم يواجهون الدمار كما ذكر في القرآن الكريم عن قوم ثمود أنهم استحبوا العمى على الهدى، ولذلك واجهوا الذلة والمسكنة. وذكر الله -ﷻ- الحق والباطل، والخير والشر وفي ذلك تكمن حكمة أيضاً، وهي أن الإنسان يعرف كليهما بسهولة، وإذا نظرنا في الشر بإمعان فنجد فيه جانباً من الخير، يقول الله -ﷻ-: "قَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلُ سَكَنًا"،² وفي ضوء هذه الآية الكريمة يقول الإمام الفراهي: إن هذه الآية تدل على أن الليل لم يخلق للظلمة، بل خلق لمصلحة، لأن الله -ﷻ- رب الخلق، ولذلك هو يقوم بنشأته ونموه. وأما الظلمة فيمهلها للخير الذي وضعه فيها، وإذا تعجل في محوه، وإزالته فتمحو المصالح التي تخرج منها، فكذلك يحو الجانب الذي يقوم الله -ﷻ- بنشأته ونموه، ويظهره. يقول الله -ﷻ- في القرآن الكريم: "يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ".³

يقول الإمام الفراهي: إن الله -ﷻ- قد عيّن طول حياة الخلائق ليكشف عن خيرها المخفي، وذلك في الحقيقة لتربية النفوس الإنسانية، ويرى العلامة أن النفس كالزهرة التي تنبت على هذه الأشجار، والجواهر التي توجد في هذه الأحجار، فالحكمة هي ثروتهم وهم خلقوا للحصول على هذه الثروة. كما أشير في هذا الباب إلى أن الحكمة هي تكميل الرحمة، فالحكمة تجمع جميع الأمور، وبها تقوم الأرض والسماء. فهي البداية والوسط والنهاية، وهي تبعد الناس عن الفواحش وتلوّث النفس، وتقربها من التزكية، ولذلك أرسل الله -ﷻ- رسولا لتعليمها.⁴ أما الباب

¹ سورة محمد: 17

² سورة الأنعام: 96

³ سورة النمل: 25

⁴ انظر للتفصيل: حكمة القرآن للفراهي، ص 46-55

الثالث فعنوانها تعليم الحكمة والحصول عليها، ويقول الإمام في هذا السياق: أن الحكمة في القرآن الكريم ودلّ على عظيم منزلتها، وأنها من أكبر نعمه. وقال مشيراً إلى جانب مهم وهو أن الله -ﷻ- وصف نبيه محمداً -ﷺ- بأربع صفات في أربعة مواضع، فمنها تعليم الحكمة آخر تعليمه. الموضع الأول: ما جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة حيث قال: "رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" ¹ والموضع الثاني: ما ذكر في إنجاز ذلك الدعاء في سورة البقرة أيضاً حيث قال: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" ²، والموضع الثالث: تم ذكره في سورة آل عمران حيث امتن به على المؤمنين فقال: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" ³ والموضع الرابع في سورة الجمعة حيث حذرهم أن لا يعرفوا قدر هذا الفضل العظيم من ربهم فقال: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" ⁴ وَاخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⁵ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ⁶." ⁴

يقول الإمام: إن الصفات الأربع التي ذكرت في السور الثلاث لها غرض خاص سنذكره في فصل مستقل، وأما تلاوة الآيات فشغفت بها الأمة بجهود الرسول -ﷺ- وأنه -ﷺ- لعب دوراً هاماً في تزكية النفوس لا يوجد له مثيل لدى الأنبياء الآخرين، ثم داوم الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- على هذه السلسلة بعده، ولا يزال يدعون

¹ سورة البقرة: 129

² سورة البقرة: 151

³ سورة آل عمران: 164

⁴ سورة الجمعة: 2-4

الناس باستمرار إلى التدبر والتفكر في القرآن الكريم، لأنه منبع الحكمة. ثم ذكر ما يتعلق بأنواع الحكماء فقال: إن بعض الحكماء يتمتع بالفهم والإدراك وهو يعلم الناس التجنب عن الفواحش، والتقرب من التزكية، بينما بعض الحكماء لا يعرفون أصل الحكمة، وبعضهم لا يستطيعون أن يقدموا كلامهم بنسق كامل. وأما ما يتعلق بحصول الحكمة فيرى العلامة أن هذا الشيء لا يمكن لأحد أن يطلبه إلا من الله، لأنه نور من الله - جلّ شأنه - الذي لا يعطيه إلا الله. وليتذكر الإنسان أنّ ذلك لا يتحقق إلا بالصلاة في جوف الليل، وقراءة القرآن بالترتيل والتدبر فيه، والتراحم والمناصحة فيما بينهم.

وتمت المحاولة لتقديم هذه النكتة أمام العالم بأن الحكمة لا ينالها إلا أهل الفكر والبصيرة، ولذلك ورد في القرآن الكريم: "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾" أي أن النصيحة لا يمكن حصولها إلا لأولي الألباب. ويقول الإمام: إن العلماء من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - تعلموا الحكمة في عهد الرسول - ﷺ - كما تعلموا القرآن الكريم. ولكن حيثما بعد عهد الرسول - ﷺ - عن الأمة ابتعدت عنهم الحكمة. وانقسمت الأمة بعد الصحابة في ثلاثة أقسام. الأول: هم الذين اشتغلوا بالقرآن فكراً وتلاوة وتعليماً ولم يكن عندهم شيء يصرفهم عن ذلك. وهؤلاء كانوا أكثر العلماء نصيباً من الحكمة مع تفاوت فيما بينهم، وكانوا أفهم لمعنى الحكمة. والثاني: هم الذين اشتغلوا برواية السنة والحديث عن النبي ﷺ فاشتغلوا بما يحدث عنه وعن أصحابه جمعاً ونقداً حتى سدوا كل باب يدخل منها البدعة والتحريف في الإسلام كما وقع في سائر الملل. ومع عظيم منزلتهم في الدين والتقوى، وهو باب من أبواب الحكمة، قلّ التفاتهم إلى باقي أبواب الحكمة.

¹ سورة البقرة: 269

وهؤلاء التبس عليهم مفهوم الحكمة، فإنهم ظنوا أنها هي علم الحديث. والثالث: هم الذين اشتغلوا بعقليات اليونان وظنوا أنها هي الحكمة التي أشار إليها القرآن، كما صرح به أهلها، فصرفوا عن الحكمة الإلهية.

وفي الباب الرابع ناقش العلامة موضوع نظام القرآن الكريم والحكمة، وأراد أن ينبه على وجه خاص من الدلالة وهو أن نظم القرآن مبني على الحكمة بمعنى أن النظم¹ لا يهتدي إليه إلا من باب الحكمة. فمن حرم هذا النظر لا يهتدي إلى نظمه. وكون القرآن المجيد علياً يستلزم كونه حكيماً من جهة اتصافه بالحكمة. وكما أن الحكمة تستلزم السعة والإحاطة بأمور شتى....، والحكمة تستلزم أن يكون هذا الكتاب منظماً مرتبطاً. ولذلك وصف الله - جلّ شأنه - كتابه بالعزیز الحكيم كما قال تعالى: "وَأَنَّهُ لَكَتَّابٌ عَزِيزٌ" (١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ" (٢) ثم تكلم عن مستنبط الحكمة هو النظم ثم تكلم عن طرق معرفة الحكمة، فيقول: فاعلم أن الحكمة قد بينا القرآن بجميع طرق التعريف ولكن الناس أخطأوا في معرفتها. فع أن القرآن استعمل هذه الكلمة في مواضع كثيرة ومنها ما صرح فيه بأن ذلك من الحكمة، وقد صرح أهل اللسان بمعناها. ثم ذكر الأصول التي أودعها الله - ﷻ - فطرة الإنسان، وهذا المنبع موجود في نفس الإنسان وعبر الإمام عنه قائلاً: "ولكن دأبه أن يرجع إلى نفسه ويتفكر في فطرتها وعجائبها، فإنها هي

¹ للإمام الفراهي كتاب مهم في نظم القرآن تكلم فيه بالأدلة عن أن القرآن كتاب منظم، وتوجد هذه المباحث لنظم القرآن عند المتقدمين أيضاً، ولكن ليس بطريقة محكمة، انظر: المعلم عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام، الدائرة الحميدية، الطبعة الأولى، 1388هـ، ص 9-64، وكتب تفسير عدة سور مراعاة لنظرية "نظم القرآن" في مجموعاته التفسيرية، انظر: الشيخ حميد الدين الفراهي، تفسير نظام القرآن، (النسخة المترجمة للشيخ أمين أحسن الإصلاحي) الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، 1990م، ص 29-536

² سورة فصلت: 41-42

المرصد الذي يرى منه ما حلها وما فوقها وما تحتها، ولذلك جعل الأولون معرفة النفس أكبر المعارف وأساسها. وما أجهل وأغفل من يغفل عن أحوال نفسه ويشغل بما يبعد عنه ولا بد أنه يذهب عنه ضرره ونفعه".¹

وفي خاتمة هذا الباب قال الإمام: إن الحكمة التي حثّ عليها القرآن الكريم بقيت مستورة وهي بين أيديكم. إذ جعلوا اسمها لغيرها قنعوا عنها بغيرها ظانين بأنها هي، لأن الله -ﷻ- أعطاهم هذه الحكمة كإرث، ولذلك أنهم أغنياء عنها، ولم يفكروا في أصل الحكمة، ولذلك قيل في الحديث: "الحكمة ضالة المؤمن"².³

وتكلم الإمام الفراهي في الباب الخامس عن "نظرة الحكيم كيف تكون". ويقول: الحكيم يرى أن العالم يتضمن إتقاناً وإحكاماً في مجازي أحواله، نخلق لغاية، فلا بد من خالق يجري الأمور لغايتها. ويجب امتثاله على جميع خلقه. وأما القرآن الكريم فبين الحكمة بالأمثال. وكان المسيح -ﷺ- يعلمهم بالأمثال لكي يتأملوا، ويقول أفلاطون: من لا يقدر على ضرب الأمثال لا يكون حكيماً.⁴ وحتى جاء في القرآن الكريم عن الأمثال: "وَمَا يَعْزِلُهَا إِلَّا الْعَلِيمُونَ".⁵

ويرى الإمام أن الحكمة جامعة العلم والعمل، وحياة القلب، وكما أن الأرض

¹ حكمة القرآن للفراهي، ص 53-54، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، الطبعة الأولى، 2009م، والطبعة الثانية، 2016م

² أخرجه الترمذي وغيره عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها، برقم (2687) أبو عيسى الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 51/5، وقال الألباني رحمه الله، هذا الحديث ضعيف جداً، ينظر: الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988م

³ انظر: للتفصيل، حكمة القرآن للفراهي، ص 55

⁴ المرجع نفسه، ص 64

⁵ سورة العنكبوت: 43

الطيبة تنبت البذر، فكذلك القلب الحيّ ينبت فيه بذر العلم. فإذا صار العلم حياً نامياً فلا بد أن يكون القلب طيباً.¹ ولذلك قال الهادي عليه السلام: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع".²

ثم بين الإمام أن الحكمة تؤخذ من ههنا وههنا وتأتي بالتدريج، ولذلك نزل الله القرآن الكريم تدريجياً، كما قال تعالى: "كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً" ³ وفي الختام أكد على أن الحكمة لا تهتدي إليها إلا بمعرفة القرآن بما أودع الله في نظمه البديع من المعارف.⁴ وبعد ختام الجزء الأول يبتدئ الجزء الثاني. وبين في بداية الجزء الثاني بأن الكون ليس فيه إلا نظام واحد وحينما يتم تحليله يتجلى أن خالق هذا الكون هو الله الواحد لا غير ونظام الكون نفسه يدل على الوحدانية أيضاً، والحكيم يعتبر جهات النفع والخير.

وهذا الكون يعكس على أنّ خالقه هو المالك الكامل. وجميع الأشياء في الكون تحت سيطرته. والله هو الأول والآخر ويرجع إليه كافة الناس، يقول الله -عز وجل-: "وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ".⁵

ثم ذكر أنّ الديانة حكمة قيمة مستقيمة، ومن عرف حكمها وتدين بحسبها كان على نور وبصيرة. فإن العبادة لا تتصور من دون ذلك العلم. ومن المعلوم أن الحكمة تخلق البصيرة في الإنسان التي لا يرى بها عرقلة في سبيل أمور دين الله،

¹ حكمة القرآن للفراهي، ص 66

² من حديث زيد بن أرقم مرفوعاً عند مسلم . وتمام الحديث... ومن نفس لا تشيع ومن دعوة لا يستجاب له". ينظر: الإمام مسلم النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ، 2088/4، برقم (2722).

³ سورة الفرقان: 32

⁴ انظر للتفصيل: حكمة القرآن للفراهي، ص 68-70

⁵ سورة آل عمران: 28

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: "مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ"¹.

ويقول الفراهي: قد صرح القرآن بأن الدين هو الإسلام وبأنه الفطرة، كما صرح بأن القرآن هو الهدى وأنه يهدي إلى صراط الرب والدين القيم. فصرح بالتوفيق الذي بين القرآن والإنسان، وبين الخلق والأمر عموماً فقال: "أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"² وقال في موضع آخر: "أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ"³.

ونظراً إلى نظام الكون يجب على الإخوة أن يمتثلوا بأمر الله، وإن يفعلوا خلاف ذلك يقعوا في الضلالة، ويكونوا من المعتدين على الفطرة. إن الله -ﷻ- يبتلي عباده بالضرأ والسراء، فيجب على الإنسان أن لا يعرض عن هدف الحياة، ويبلغ ما أودعه الله من القدرات إلى الغاية. ويكون ثابتاً على كل قضاء من الله تعالى، وعلى الرغم من هوى نفسه أن يحاول التمسك بجبل الله، لأن دين الإسلام جعل التزكية الغرض الأساسي للإنسانية. ويقول الله تعالى: "يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"⁴.

وقد مضى أن يوجد التوفيق بين الخلق والأمر. فإذا بلغ طالب الحكمة حيث اطلع على وجه الحق في الخلق والأمر ووجهتهما إلى شمس وجد ضالته، ولكن الفلاسفة غير قادرين على حصولها مع جميع علومهم.⁵ وقد أخطأ أرسطو حيث جعل الحكمة الإحاطة بالعلوم كلها. ولكن كل ذلك مفروض وليس في شيء من الحكمة. وقد تفتن لذلك فجعل ما بعد الطبيعة هي الحكمة العليا، ولكن لم

¹ سورة الملك: 3

² سورة طه: 50

³ سورة السجدة: 7

⁴ سورة آل عمران: 164

⁵ حكمة القرآن للفراهي، ص 94

ينخرج عن شرك توهه الأول فجعل الأمور العامة هي الموضوع للحكمة فبقي في حجاب. ثم توجه الآخرون إلى العلم والعالم ولكن تلاعبت بهم الأوهام فلم يعرجوا إلى عين العلم.¹ قال تعالى: "وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ".²

وفي ختام هذا الباب قد تحدّث الإمام الفراهي عن "موضع الاختيار" وذكر بأن الله -ﷻ- قد أعطى الإنسان هذا الاختيار بعد تمام النعمة بأن يختار لنفسه ما يشاء من طرق الخير والشر.

وأما الباب السابع فذكر فيه أن مفهوم الدين هو العبادة والطاعة للرب. وأن العبادة إذا صحت تضمنت أموراً أربعة:

(الف) أولها الإخلاص، والمعرفة روح العبادة، والسير على مرضاة الرب، والإلمام بأجزاء الدين يعني الإلمام بجميع جوانب الحياة الدينية، لا يمكن للناس أن يعيشوا متوسطين بدون هذه الأشياء. وباختيار هذه الأشياء يكون الحكيم رجلاً مؤمناً. وبالعكس لا يرى الاعتدال في الديانات الأخرى. ويرى الإمام الفراهي أن الهندوسية، والبوذية، والمجوسية، واليهودية، والنصرانية ومثل هذه المذاهب قد تسرب إليها الغلو والبدع بطريق اتباع هوى النفس. والحكيم ينظر إلى المذهب من ثلاثة جوانب: 1- وجود المذهب ونظامه، 2- وعلاقته مع المذاهب الأخرى، 3- وعلاقته مع الحقائق الثابتة. وفي مثل هذه الحقائق تأتي الفطرة الإنسانية بجميع مفاهيمها. وذكر بعد ذلك بأن الحكيم يعرف بكل معانيها الأشياء المحرفة في المذاهب.

وفي الباب الثامن قد عبّر عن رأيه حول موضوع أسس دين الإسلام فألقى الضوء أولاً على معرفة الله -ﷻ- وقال: يجب على الناس أن يؤمنوا بثلاث صفات الله -ﷻ- وهي كمال الرحمة، والقدرة، والحكمة. وهذه الثلاث تجمع باقي صفات

¹ المرجع نفسه، ص 95

² سورة النور: 40

الجلال والكمال. وبعد الإيمان بالله يفرح القلب ويشعر بالسرور والانبساط، قال تعالى: "وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ"¹.

وبعد ذلك تكلم عن ثمرات الإيمان وذكر بأن أول الأمر هو العدل، وهو نقطة امتزاج العقل والخلق، حسن الخلق يطمح إلى الإحسان، ومنه أداء الحق الذي على النفس وهو الشكر. فالشكر داخل في العدل. ووجوب الشكر هو من العدل، كيف تأخذ مجاًناً ولا تعطي ما عليك من الحق.² قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"³ وفي هذا الباب ألقى الضوء على حقيقة الشكر وقال: إن العدل من حيث ذاته صفة لازمة، وكذلك الشكر صفة لازمة، والشكر من حيث الأصل اسم الجزاء المساوي للإحسان، إن الله -ﷻ- قد منّ على الإنسان من حيث لا تعد ولا تحصى، وهذا يقتضي أن يحبه خالصاً وكاملاً، وجزاء الإحسان بالإحسان هو من العدل، وكذلك ألقى الضوء على العدل وذكر أهميته وقال: فإذا تحقق الشكر انتبه وصرف التوجه والنظر في ملكوت الله تعالى، فيؤمن بأن له رباً واحداً متصفاً بنعوت الجلال والجمال على وجه الكمال.

وفي خاتمة هذا الباب قال: قد صرح القرآن والسنة، وتبين للعقل أن العمل وإن كان مفيداً أو مضرّاً بنفسه لغير العامل ولكنه لا يفيد العامل إلا حسب نيته. وحسن النية يسمى الإخلاص والإسلام. فالمخلص الموحد يبتغي وجه ربه ويخشى سخطه فيتقي ويطلب سبيله ويفكر في تقصيرات أعماله، فإذا تم ذلك هداه الله بإلهام أو قيض له من يهديه إلى تصحيح العمل، كما قال تعالى: "وَالَّذِينَ

¹ سورة التغابن: 11

² حكمة القرآن للفراهي، ص 100-101

³ سورة النحل: 90

جَاهِدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا¹.

لا شك في أنّ مجهودات الشيخ خالد مسعود هدية ثمينة للأوساط العلمية عامة ولطلبة القرآن الكريم خاصة. ولكنه إن قام بمجهوداته هذه لتخريج أصل الكتاب إلى عالم الوجود اعتبرت من التحف الثمينة، وبسبب عدم وجود النص العربي لم أتمكن من أن أقوم برأي محكم في هذه الترجمة، ولكن شعرت من خلال الترجمة بفقد السلاسة. وكذلك قد وفر المترجم المصادر والمراجع والهوامش فمن الممكن أن الإمام الفراهي قد ذكر المصادر، وعلى الرغم من ذلك أنه يوجد في هذا الكتاب كثير من الأمور التي كانت في حاجة إلى التوثيق بالمصادر والمراجع. ومن هذا الجانب أنّ هذا الكتاب نافع لفهم أفكار الإمام الفراهي للقرآن الكريم. ويدلّ حقاً على أنّ الفراهي كان من الرجال الذين أسسوا أفكارهم لفهم القرآن الكريم في القرن العشرين، ولذلك أنّ فكرة الفراهي لم تقبل في شبه القارة الهندية فقط، بل قد شاع ذكرها وعمّ نفعها في العالم العربي أيضاً.²

¹ سورة العنكبوت: 69

² مع الشكر لمجلة "علوم إسلاميه" السنوية (بالأردوية)، 78-67/2-1/21

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. أبو عيسى الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
3. الإمام مسلم النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت..
4. الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي، كتابات فراهي (فهرست مصنفات الفراهي ومصنفات الآخرين عنه)، إدارة علوم القرآن، علي كره، 1991م
5. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس المطلبي القرشي المكي، الرسالة، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، 1940م
6. الشيخ الفراهي، تفسير نظام القرآن، (النسخة للترجمة للشيخ أمين أحسن الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1990م
7. عبد الرحمن ناصر (المرتب)، مختصر حيات حميد (مقالتان عن ترجمة الفراهي)، مطبع المعارف، أعظم كره، د.ت.
8. عبيد الله الفراهي، علامه حميد الدين - حيات وأفكار (مقالات الندوة المنعقدة عن الإمام الفراهي في رحاب مدرسة الإصلاح)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1992م
9. عنايت الله السبحاني، علامه حميد الدين فراهي (العلامة حميد الدين الفراهي)، مكتبة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1978م
10. محمد ناصر الدين، ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988م

11. المعلم عبد الحميد الفراهي، حكمة القرآن، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، الطبعة الأولى، 2009م، والطبعة الثانية، 2016م
12. المعلم عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام الدائرة الحميدية، الطبعة الأولى، 1388هـ